الحلقة الرابعة

.. والتحول إلى الخلافة

كيف تم التحول إلى الخلافة ؟ مع هذا الأميرعبد الرحمن الثالث الناصر الفتى ، والذى تصدر ليتولى مقاليد الحكم دون مَن هو أولى به منه ، فهناك أبناء الأمير عبد الله ، وما أكثرهم ، ولكن الحفيد الذى كان موضع رعاية له بل ومأثوراً من بين الآخرين ، وكأنه تنبأ بفراسته العربية الأصيلة ، ما لهذا الأمير من سماة تؤهله للحكم ، وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من العمر ، وكما كان متميزاً واستثنائياً فى مآل الحكم إليه ، كذلك كان متميزاً باستمراره ، بل يُعتبر من أطول الملوك حكماً ، خمسين عاماً من المسؤولية ، بدأت فى (٣٠٠ هـ /٩١٢ م) ، وتحوّلت إلى خلافة عام ٩٢٩ م أى بعد سبعة عشر عاماً ميلادية .

هذا التحول وتلقيبه بأمير المؤمنين وناصر لدين الله ، يرى صاحب « الحلل الموشية » التى كثيراً ما تُنسب إلى « ابن سيماك العاملى » أن مرد التسمية وهذا الاختيار كان استجابة لسكان الأندلس ، فهم الذين طلبوا من الناصر أن يكون خليفة لهم ، وربما وجود خلافة على مقربة من الأندلس فى المغرب وخلافة فى المشرق ، جعلا هذا المطلب مطلباً طبيعياً يتمشى وواقع العصر آنذاك لقائد برهن خلال سبعة عشر عاماً على جدارته بالحكم وأن يكون خليفة للمسلمين فى هذه البقع .

لقد بدأ فى جو مشحون بمختلف المعيقات ، ما بين ثائرين مسيطرين على مناطق يمارسون فيها نفوذهم ، وظروف اقتصادية واجتماعية متأزمة ، ولكنه كان من الوعى الذى اقترب به من معاوية مؤسس الدولة الأموية الأولى فى المشرق وسياسة الشعرة التى لا تنقطع ، فقد كان عبد الرحمن الناصر بدوره يتوعد ويمنى ويحذر بين الشد والجذب ، بين المد والجزر ، واستطاع أن يُؤمِّن لقرطبة سيادةِ

سُلطتها على مختلف المناطق ويُخضِع الخارجين لنفوذه إلا ما شَذَّ منهم مكلفاً له مشقات متعددة .

رنعنى به ابن حفصون الذى كان موضعًا مثيراً للقلاقل فى العديد من العهود ، بل اتخذ كقاعدة له فى التعامل مع السُلطة الخروج عليها ، ولم يكن هذا بغريب على مولَّد مهتز فى قناعاته الإيمانية ومرتد فى أعماقه ، فارتداده عن الإسلام محاولاً بذلك التقرب إلى النصارى لم يجديه فى شىء ، فالآكل على كل الموائد هو المحروم بذاته ، فلا مائدة له ولا انتماء إلى وفاته مقبوراً سنة (٣١٢ هـ / ٩٤١ م) تاركاً بعد وفاته أبناءً ثلاثاً ، استطاع الناصر كما استطاع مع غيرهم استئصال السُلطة منهم معيداً إلى الأندلس وحدته الأموية محاولاً الاتجاه به نحو قلاع المجد متجاوزاً لبؤر الضياع ، ليس فقط على المستوى الداخلى ، وإنما أيضاً فى علاقاته الخارجية .

فقد كان بحق مروِّضاً لمختلف النزعات والانتماءات فى إطار إيقاعى متجانس ما أمكن ، متدخلاً بمرونة واعية ليسوى الخصومات بين العديد من الصفات كالقشتاليين والليونيين والبريين ، حيث استطاع أن يستغل ما بينهم من صراعات ليصل إلى إضعافهم جميعاً ، ممكناً لسلطانه ، بما فى ذلك طبيعة المواجهة مع الشيعة ومطامحهم ، حيث نفذ عبر قنوات فقهية إلى معاقلهم بما فى ذلك مصر ، كمثال الفقيه المالكى المعروف بابن القرطبى وغيره . ممن أرسلهم لتفنيد المزاعم الباطنية بما فى ذلك دعاوى المهدى ، والإمام المنتظر ، باعتبار أن الإسلام يتميز بوضوحه وصراحته إيمانياً وعقائدياً ، حقوقاً وواجبات دون تغميض أو التباس - « فلا عصمة إلا لنبى » - ونبى الإسلام وخاتم الأنبياء هو محمد عليه السلام . قائد على هذا المستوى من الصرامة والتأهيل والممارسة والوعى ، لا بد وأن يؤمِّن هذه الطموحات المشروعة بدرع قوى ، يمثله جيش قادر على الدفاع والمواجهة ، برياً وبحرياً على حد سواء ، خصوصاً وأن المواجهة مع الفاطميين الشيعة اكتست بنوع من التداخل وكسب المواقع بين القبائل ، فطموحات الشيعة الفاطميين لم تتجه بهم فقط إلى المشرق ، بل كثيراً ما حاولوا أن يتجهوا بها إلى الأندلس ، مراقبين لما يجرى به من أحداث ، مثيرين للقلاقل .

وكذلك الناصر بدوره تبنى معهم ما هو شبيه مع الفارق وهو أن أرضية القلوب فى المغرب بالنسبة لتقبل التشيع الفاطمى ، توضع عليها علامات استفهام كبرى ، بينما فيما يعنى الناصر ، تكامل القلوب كان تلقائياً ، وهنا ينطبق المثل السائد بالنسبة لعديد من العشائر التى أعلنت ظاهرياً تقبلها للشيعة وكان لسان حالها يردد : « إن كانت سيوفنا معك فقلوبنا عليك » ، والعكس صحيح بالنسبة للناصر : إن كانت سيوفنا عليك ، فقلوبنا معك ، فضلاً على أن استقرارية السُلطة للفاطميين قضية فيها نظر ، فكانت الثورات تشتعل هنا وهناك فى تونس والجزائر وغيرهما من المناطق التى كان يسيطر عليها الفاطميين ، ومع هذا لا يمكن أن يُنكر ما شيَّد فى « قاهرة المعز » وعلى سبيل المثال لا الحصر : الأزهر .

فإن كان الناصر قد شيَّد ووحَّد وأمَّن استقرار السُلطة ، وفعل الكثير مما يُحسب له ، فبدوره كما حسبنا على الفاطميين المغالاة فى التبطين والمناداة بتقاليد لا تتمشى ووضوح وبساطة الإسلام ، خصوصاً لدى « الغُلاة » من فرق الشيعة من أصحاب الدروب المظلمة والعمل المستتر ، فيمكننا أيضاً أن نحسب على الناصر لا له ، رغم عصره المشرق ، هذه المغالاة أيضاً بدورها فى المواجهة مع مَن يلتقى معه فى الدين إلى حد القطيعة وقلب الأحلاف وتحويل الأعداء إلى حلفاء والإخاء إلى عداء ، فكيف يمكن لناصر لدين اللّه وأمير المؤمنين أن يتحالف على حساب أبناء دينه ، دفاعاً عن سُلطته وتأمينها مع الشيطان ، ولو كان ممثلاً فى بيزنطة أو غيرها .

فإن كنا نتقبل معه توطيد علاقته مع الإخشيدين فى مصر ، ولكن نضع علامة استفهام كبرى باسم الحاضر فى الماضى ، والماضى فى الحاضر حينما يدفع الانفعال إلى حد خلط الأوراق وتعتيم المواقف ، ولو كان يؤدى هذا إلى التحالف مع الشيطان ، تعبير نجده اليوم حين يتردَّد بين أبناء الأسرة الواحدة ولا نعتقد أن أجدادنا تقبلوه بدورهم حين الوعى بحقيقة أبعاده ، بروح الرضا والانبهار ، فكثيراً ما تنهار الأمم حينما تفتح نوافذها بحثاً عن التهوية وتخفيفاً لثقل المعاناة ، فتحمل إليها هذه النوافذ سموم الاختناق والاندحار .

إن كنا نتقبل من هؤلاء أيضاً - كما نتقبل من المعاصرين - مرونة التعامل مع الآخر بتفهم وفهم وتفاهم بما فى ذلك تبادل السفارات والزيارات ، ولِمَ لا ؟ الهدايا ، ولكن شريطة أن تبقى المقاييس واضحة ، ولا تتجاوز حدود المجاملة وحسن الجوار ، أما حينما ترتقى إلى مستوى التحالف ، وربما التآمر المدمر والمقنَّع ، فهذا أمر بغيض جَرَّ وما زال يجر علينا الوبال ، لقد كان الناصر قائداً معطاءً فيما تبقى من إنجازات سواء فى ميدان الزراعة وتشجيعها ، والتجارة والصناعة ، بل والفنون والأدب ، وحتى العلوم .

فبحق إنه قائد متميز لعصر متميز ارتقى فيه بقرطبة العاصمة ليباهى بها بغداد ، تشييداً وعمراناً ، بما فى ذلك مساجدها ، وما جدَّد فيها على مستوى البناء ، كمثال « مدينة الزهراء » التى شغلت حيزاً من اهتماماته ، بل ومن ماله ، مما أهَّلَ بعض الأصوات لتتصدى (سعيد البلوطى نأخذه كمثال) حين نقده لهذا البذخ وهذه المغالاة . ولقد كان طبيعياً أن يناغم هذا التطور العمرانى ، تطوراً فى إشراق الفكر وعطائه ، فازدهر هذا العصر بعقول متميِّزة ، مبدعين كشعراء ونُحاة ومؤرخين ، ورياضيين وفقهاء ، وفلاسفة ... إلى غير ذلك من دروب المعرفة والثقافة .

فهذا ابن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ / ٨٦٠ - ٩٤٠ م) الذى له المؤلَّف المعروف بـ « العقد الفريد » ، وهو منجم فكرى ، لا يمكن إنكار طابعه المتميِّز متأثراً فيه بالمشرق ، فى شكل موسوعى جمع فأوعى ، فى مختلف مناحى المعرفة الممارسة آنذاك ، وهذا ابن هانىء المتوفى فى (٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م) ، وبدوره غنى عن كل تعريف ... وغيره وغيره من الشعراء ، يفخر الأندلس بهم كوجوه مشرقة خلَّدت ذكراه عبر العصور ، ولنا إلى ذلك عودة فى حلقة أخرى حين التعريف بقلاع المجد ، كذلك عرف الأندلس شعراء كتبوا فى النحو والتاريخ ، كما عرف نحاتاً ومؤرخين قرضوا الشعر ، نذكر « الزبيدى » ، ومؤرخين من طبقة الرازى .

وهناك مَن مارسوا الرياضيات والطب واجتهدوا فيه وإن كان دور الفقهاء والمحدِّثين ظل كما كان متصدراً ، نخص كمثال إلى جانب البلوطى المشار إليه سلفاً (وهو يُذكر لدى البعض على أنه يجسد الإرهاصات الأولى للمذهب الظاهرى ممهداً الطريق لابن حزم) محمد بن واضع ، وابن أيمن ، وقاسم بن أصبغ وغيرهم الكثير ، مما يؤكد لنا الحضور الفكرى المتنوع والذى فتح الباب إلى جانب الفقهاء والأدباء والشعراء والمؤرخين والرياضيين والأطباء لأمثال « ابن مسرة » المتوفى سنة (٣١٨ هـ / ٩٣١ م) وهو شخصية تطرح العديد من التساؤلات وتشكل موضعاً للمناقشة ، ولِمَ لا ؟ التحليل والنقد فى عصره كما فى عصرنا .

تتلمذ على مفكرين فى الأندلس والمشرق ، وتعامل مع التيارات الفكرية فى مختلف دروب العقلنة . بل اتجه به المستشرق « أنخيل جونثالث بالنثيا » فى كتابه « تاريخ الفكر الأندلسى » إلى أنه أذاع بين مسلمى أسبانيا آراء امباذقليس ، ويرى البعض أنه ليس « امباذ قليس » الحقيقى ، وإنما « امباذ قلبس » مزيف ، وكانت أفكاره خليطاً من الغنوصية التى قالت بها الأفلاطونية الحديثة . وانتشرت أفكاره آنذاك حتى بعد وفاته وأثارت ردود فعل مختلفة ، ينقل البعض أنها وصلت إلى حد محاربتها من فوق منابر المساجد والدعوة إلى الابتعاد عنها ، ومع هذا بقى ابن مسرة موضعاً للتساؤل وإسهاماً يطرح أكثر من استفهام سواء فى نشأته أو انتمائه الفكرى وغايته .

ولايمكن عزل ابن مسرة عن البيئة التى ترعرع فى أحضانها ، فقد كانت بيئة تشجيع وانفتاح واستيعاب للمعارف والفنون ، فهذا الناصر نفسه بمكتبته العامرة بكتب من العراق والشام وأوروبا ومصر ، دليلاً متميزاً وواضحاً يؤكد المستوى المتصدر الذى بلغته حضارة الأندلس فى عصره ، حيث تعايش الالتزام ممثلاً فى الأصوليين فقهاء ، ومحدِّثين ، مع الأدباء والمبدعين فى الفنون والمجتهدين فى فكر الإنسان وعلومه ، بما فى ذلك يهود الأندلس وقد كانوا يجالسون الخليفة نفسه .

وقد سمحت هذه الروح المرنة وهذا التسامح السخى ببداية الدراسات التلمودية فى أسبانيا، وإقلاع المساهمة اليهودية على حسب طريقتها وغايتها فى حضارة الأندلس ، ونقل روائعها فى مراحل تالية إلى اللاتينية والعبرية ، وهذه قضية إن كانت تُسجِّل لحضارة الإسلام بمداد من فخر ، لما كانت تتحلى به من تسامح وإنسانية ، فهى تسجل أيضاً بدورها مدى إسهام هذه الحضارة الأندلسية فى إرهاصات النهضة الأوروبية الحديثة عبر قنواتها اللاتينية .

لقد كانت وقفتنا فى هذه الحلقة التى خصصناها للناصر وما حوله ، متجانسة مع ما غطاه عصره كماً وكيفاً من عطاء وإشراق وتأسيس واستقرار ، إلى حد أنه وُصِفَ على أنه يجسد عصراً من العصور الذهبية فى حضارة الإسلام ، واستمر موكب الخلافة ، فلن يتوقف الزمن ولكنه قد يتحوّل إلى زمن سابق لزمانه ، أو إلى زمن متراجع عن زمانه ، فماذا عن زمن الخلافة بعد هذا الناصر ؟ هذا ما سنتناول عرضه والتعرض له فى الحلقة التالية .

* * *